الباب الثالث والثمانون: في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ [1] فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً. ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة﴾[2] وقال تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[3] فلا تبغ أيها العاقل حياة قليلة تفنى بحياة كثيرة كما قال ابن عياض: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى. ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتي سليمان عليه الصلاة والسلام، حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن، وسخر له الريح، والطير، والوحوش ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾[4] فوالله ما عدها نعمة مثل ما عددتموها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكرك أم أكفر﴾[5]. وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾[6] وقال تعالى: ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [7] وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أريك الدنيا بما فيها. قلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدي وأتى إلى واد من أدوية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس، وعذرات، وخرق بالية وعظام البهائم فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم وهي اليوم صارت عظاماً بلا جلد ثم هي صائرة عظماً رميماً، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها في الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها[8]، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكياً على الدنيا فليبك. قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير من الليف. وقد أثر الشريط في جنبه فبكى عمر رضي الله تعالى عنه فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٧٧.
(٢) سورة: الحديد، الآية: ٢٠.
(٣) سورة: العنكبوت، الآية: ٦٤.
(٤) سورة: صٓ، الآية: ٣٩.
(٥) سورة: النمل، الآية: ٤٠.
(٦) سورة: الحجر، الآيتان: ٩٢ ـ ٩٣.
(٧) سورة: الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٨) تصفقها: تلاعب بها.

من سعة الدنيا، وأنت رسول الله وقد أثر الشريط بجنبك. فقال ﷺ: هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا في الآخرة. وروي عن الضحاك قال: لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدا ريح الدنيا وفقدا ريح الجنة غشي عليهما أربعين يوماً من نتن الدنيا. وعن ابن معاذ قال: الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال: ركون إلى الدنيا، وهم عدو، وحسد أخ، وحب شرف. وعن النبي ﷺ أنه قال لعلي: «يا علي أربع خصال من الشقاء جمود العين، وقسوة القلب، وبعد الأمل، وحب الدنيا». وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين، أنيابها بادية، مشوهة الخلق، لا يراها أحد إلا هرب منها فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم أتعرفون هذه؟ فيقولون لا نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال هذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها. وعن الفضيل بن عياض أنه قال: جعل الخير كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد في الدنايا، وجعل الشر كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه حب الدنيا. وقيل إن الدنيا مثل ظل الأنسان إن طلبته فرّ وإن تركته تبعك وفيه قال بعضهم:

إنما الرزقُ الذي تطلبه ... يشبهُ الظلَّ الذي يمشي معَك
أنت لا تدركُه متبعاً ... وهو وإن وَلَّيتَ عنه تَبَعَك

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

رأيتُ خيالَ الظل أعظم عبرةً ... لمن كان في علم الحقائق راقي
شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها ... لبعض وأشكالاً بغير وفاقِ
تجيء وتمضي بابة بعد بابة ... وتفنى جميعاً والمحرك باقي

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

ما أنعم الله على عبدِهِ ... بنعمة أوفى من العافيَهْ
وكل من عوفي في جسمه ... فإنه في عيشة راضيَهْ
والمال حلو حسن جيد ... على الفتى لكنه عاريهْ
ما أحسن الدنيا ولكنه ... مع حسنها غدَّارة فانيَهْ

وتوفي رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحِمام بكم علينا قادم
لو تنزلون بشعبنا لعرفتمو ... أن المفرط في التزود نادم
لا تستعزوا بالحياة فإنكم ... تبنون والموت المفرق هادم
ساوى الردى ما بيننا في حفرة ... حيث المخدّم واحد والخادم

وقال آخر:

عن قليل أصير كوم تراب ... وتقول الرفاق هذا فلان
صار تحت التراب عظماً رميماً ... وجفاه الأصحاب والخلان

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر:

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبي يا نفس مما ترينه ... فكل أمور الناس هذا مصيرها

وقال شرف الدين بن أسد:

يا من تَمَلَّكَ ملكاً لا بقاء له ... حَمَّلْتَ نفسك آثاماً وأوزارا
هل الحياة بذي الدنيا وإن عذبت ... إلا كطيف خيال في الكرا زَارَا

وقال بعضهم:

وغاية هذي الدار لذة ساعة ... ويعقبها الأحزان والهم والندم
وهاتيك دار الأمن والعز والتقى ... ورحمة رب الناس والجود والكرم

وقال غيره:

حسَّنْتَ ظَنَّكَ بالأيام إذا حسنت ... ولم تَخَفْ سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وقال آخر:

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمَنْ ... بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

أين آدم أين الأولون والآخرون. أين نوح شيخ المرسلين. أين إدريس رفيع رب العالمين. أين إبراهيم خليل الرحمٰن. أين موسى الكليم من بين سائر النبيين. أين عيسى روح الله الزاهدين وإمام السائحين. أين محمد خاتم النبيين. أين أصحابه الأبرار، أين الأمم الماضية. أين الملوك السالفة. أين القرون الخالية. أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان. أين الذين قهروا الأبطال والشجعان. أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب، أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب. أين الذين تاهوا على الخلائق كبراً وعتياً. أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا. أين الذين اغتروا بالأجناد. أين أصحاب الوزراء والقواد. أين أصحاب السطوة والأعوان. أين أصحاب الإمرة والسطان. أين أصحاب الأعمال والولايات. أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات. أين الذين قادوا الجيوش والعساكر. أين الذين عمروا القصور والدساكر. أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف. أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف. أين الذين ملؤوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً. أين الذين فرشوا القصور حريراً وقزاً. أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزاً. هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً. أفناهم الله مفني الأمم، وأبادهم مبيد الرمم، وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور. فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم لم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى ما اكتسبوا، أسلمهم الأحباء والأولياء وهجوهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء والبعداء لو نطقوا لأنشدوا:

مقيم بالحجوم رهين رمس ... وأهلي راحلون بكل واد
كأني لم أكن لهمو حبيباً ... ولا كانوا الأحبة في السواد
فعوجوا بالسلام فإن أبيتهم ... فأوموا بالسلام على البعاد

وقالوا لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين: قدر يغلي، وكنيف يملي وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسمت عجباً ولم تبد
حتى مررت على الكنيف فقال لي أموالهم ونوالهم عندي

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال الرشيد لما قال له عظني وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. فقال له: لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرماً لم تنفعه الموعظة. وروي أن أبا العتاهية مر بدكان وراق وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

فقال: لمن هذا البيت. فقيل: لأبي نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال، وعشق الملاح، فقال: وددت أنه لي بنصف شعري. وممن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها إبراهيم بن أدهم بن منصور كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ لما زهد الدنيا، زهد في ثمانين سريراً. قال ابن بشار سألت إبراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا؟ فقال كان أبي من ملوك خراسان، وكان قد حبب إلي الصيد فبينا أنا راكب فرسي، وكلبي معي إذ رأيت ثعلباً أو أرنباً فحركت فرسي نحوه فسمعت نداء من ورائي يا إبراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت. فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحداً فقلت لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسي فسمعت نداء أعلى من الأول يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر شيئاً فقلت لعن الله الشيطان ثم حركت فرسي فسمعت النداء من قربوس سرجي يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت. فوقفت وقلت هيهات جاءني النذير من رب العالمين والله لا عصيت ربي ما عصمني بعد يومي هذا. فتوجهت إلى أهلي، وخلفت فرسي، وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت جبته وكساءه، وألقيت إليه ثيابي، فلم أزل أرض تقلني، وأرض تضعني حتى صرت إلى العراق فعملت بها أياماً، فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال. فقال: عليك بالشام قال فانصرفت إلى بلد يقال لها المنصورية، فعملت بها أياماً فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ. فقال: إن أردت الحلال فعليك بطرسوس، فإن المباحات بها والعمل فيها كثير فانصرفت إليها. قال فبينا أنا قاعد على باب البحر، إذ جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستاناً، فتوجهت معه فأقمت في البستان أياماً كثيرة، فإذا خادم له قد أقبل ومعه أصحاب له، ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرته فقعد في مجلسه ثم قال يا ناطورنا فأجبته. قال اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه، فأتَيْتُه برمان فكسر الخادم واحدة فوجدها حامضة فقال يا ناطورنا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا ولا تعرف الحلو من الحامض، فقلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً، ولا أعرف الحلو من الحامض. قال فغمز الخادم أصحابه وقال ألا تعجبون من هذا، ثم قال لي لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة. قال: ثم تحدث الناس بذلك وجاؤوا إلى البستان. فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وأنا هارب منهم. وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ويحفظ البساتين، ويعمل في

الطين فبينما هو يوماً يحرس كرماً إذ مر به جندي فقال: اعطنا من هذا العنب فقال له: إن صاحبه لم يأذن لي فضربه بالسوط فطأطأ رأسه وقال اضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدي الجندي. فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروي أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسيح في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك تملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي، والحجر وسادي فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرتني. وقال وهب بن منبه خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا يا نبي الله إنا جياع. فأوحى الله تعالى إليه أن أئذن لهم في قوتهم فأذن لهم فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول زرعي، وأرضي ورثتها من أبي وجدي فبإذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال فدعا عيسى ربه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففر الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه. فلما عرفه قال معذرة إليك يا نبي الله إني لم أعرفك، زرعي ومالي حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها، وأنت مرتحل عنها ولاحقٌ بهم ليس لك أرض ولا مال. ولما مات اسكندر قال أرسطاطاليس أيها الملك: لقد حركتنا بسكونك. وقال بعض الحكماء من أصحابه: لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس. أخذه أبو العتاهية فقال:

كفى حزناً بدفنك ثم إني ... نقضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كل ساعة ... فأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حتى كأنه ... إذا ما تخطته الأمانيّ باطل
وما أفتح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الرأس شاعل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى ... فعمرك أيام تعد قلائل

وقال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حجاجاً فإذا أنا برجل من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا وأقبل على الآخرة فجمعتني وإياه الطريق فأنست به وقلت له: هل لك أن تعادلني[1]، فإن معي فضلاً من راحلتي فجزاني خيراً وقال لو أردت هذا لكان سهلاً، ثم أنس إليّ فجعل يحدثني. فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة، ومال كثير وبذخ زائد، فأمرت خادماً لي أن يحشوا لي فراشاً من حرير ومخدة بورد نثير ففعل. فإني لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم فقمت إليه فأوجعته ضرباً ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعةٍ فهزني وقال أفق من غشيتك وانتبه من رقدتك ثم أنشأ يقول:

---

(١) تعادلني: تساويني.

يـا خـل إنـك أن تـوسـد لينـا ... وسـدت بعـد اليـوم صـم الجنـدل[1]
فـامهـد لنفسـك صـالحـاً تسعـد بـه ... فلتنـدمـن غـداً إذا لـم تفعـل

فانتبهت مرعوباً وخرجت من ساعتي هارباً إلى ربي كما تراني ثم أنشأ يقول:

مـن كـان يعلـم أن المـوت يـدركـه ... والقبـر مسكنـه والبعـث يخـرجـه
وأنـه بيـن جنـات مـزخـرفـة ... يـوم القيـامـة أو نـار ستنضجـه
فكـل شـيء سـوى التقـوى بـه سمـج ... ومـن أقـام عليـه منـه اسمجـه
تـرى الـذي اتخـذ الـدنيـا لـه وطنـاً ... لـم يـدر أن المنـايـا سـوف تـزعجـه

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندي[2] فترجم بالعربي فإذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الأبيات:

بـاتـوا علـى قلـل الأجبـال تحـرسهـم ... غلـب الـرجـال فلـم تنفعهـم القلـل
واستـزلـوا مـن أعـالـي عـز معقلهـم ... فـأسكنـوا حفـرة يـا بئـس مـا نـزلـوا
نـاداهمـو صـارخ مـن بعـدهـا دفنـوا ... أيـن الأسـرة والتيجـان والحلـل
أيـن الـوجـوه التـي كـانـت محجبـة ... وكـان مـن دونهـا الأستـار والكلـل
فـأفصـح القبـر عنهـم حيـن سـاءلهـم ... تلـك الـوجـوه عليهـا الـدود يقتتـل
قـد طـالمـا أكلـوا دهـرا ومـا شـربـوا ... فـأصبحـوا بعـد ذاك الأكـل قـد أكلـوا

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية وأعطاه ما يشتري به فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي فجاء الرجل بثلاثة أرغفة فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة فأبطأ عليه فأكل رغيفاً، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين. فقال له أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل ما كانا إلا رغيفين فأكلاهما ثم مرا على وجوههم حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها فجاءه فذكاه وأكلا منه، فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية فأنطق الله له لبنة فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد وصاحبه يتعجب مما رأى فقال له عيسى بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج فأخذ عيسى صلوات الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه الصلاة والسلام بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كان إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام وقيل ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لها كوني ذهباً بإذن الله فكانت فلما رآها الرجل قال هذا مال فقال عيسى: نعم واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث. فقال

---

(١) الجندل: الحجر في القبر.

(٢) القلم المسندي: خط عربي قديم عرف في نواحي اليمن.

الرجل أنا صاحب الرغيف الثالث. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام هي لك كلها ثم فارقه عيسى. وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه فقال اثنان منهما للثالث انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق، فلما غاب قال أحدهما للآخر إذا جاء قتلناه، واقتسمنا المال بيننا فقال الآخر نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام، فأنه أضمر لصاحبيه السوء. وقال أجعل لهما في الطعام سماً فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسي، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطعام فماتا. فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها. فقال هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

وقال الهيثم بن عدي: وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من الذهب أيضاً مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر وعشت بعده دهراً طويلاً ورأيت عجباً كثيراً، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبابه، ويعلم أنه صائر إليهم ثم لا يتوب وقد علمت أن الأجلاف الجفاة يستنزلونني عن سريري، ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان، ويترأس الصبيان. فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً. وعن عمرو بن ميمون أنه قال افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشاً، وأقساهم قلباً، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذللت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي، ولم أستطع أن أفتدي به من الموت إذ نزل بي. ويروى في الإسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينما هو في سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل الله في أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم. فمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديداً حتى غشي عليه. ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه، وباد أهله، وأظلمت نوحيه هذه الأبيات:

هذي منازل أقوام عهدتهم ... يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم
تبكي عليهم ديار كان يطربها ... ترنم المجد بين الجود والكرم

وقيل في المعنى:

بالله ربك كم قصر مررت به ... قد كان أعمر باللذات والطرب
نادى غراب المنايا في جوانبه ... فصاح من بعده بالويل والخرب

وفيه:

أيها الرافع البناء رويداً ... لا يرد المنون عنك البناء

وحكي أن رجلين تنازعا في أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إني كنت ملكاً من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة ثم صرت رميماً ألف سنة، ثم أخذني خزّاف وعملني إناء، فاستعملت ألف سنة، حتى تكسرت وصرت تراباً، فأخذني وعملني لبناً وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة، فَلِمَ تتنازعان في هذه الأرض، وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وروي أن ملكاً بنى قصراً، وقال: انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه فقال رجل أرى فيه عيبين: فقالوا له وما هما. قال يموت الملك، ويخرب القصر. قال صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا.

وقيل: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته، وقطعه للقفار والفلوات[1]، فقال: أعجب شيء رأيته أني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها. فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ومررت بها فإذا هي خاوية على عروشها ولم أرَ أحداً أسأله. وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلتُ أين المدينة التي هاهنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان هاهنا مدينة. ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية. فقلت للغواصين منذ كم هذا البحر هنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا، إلا أن هذا البحر من عهد الطوافان، فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض[2] ماؤه، وإذا مكانه غيضة وصيادون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار. فقلت لبعضهم أين البحر الذي كان ههنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا بحر فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك فإذا هو بالمدينة على الحالة الأولى، والحصون، والقصور والأسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيظة التي كانت ههنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت فإذا عاليها سافلها، وهي تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فسألته أين المدينة قال: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي فسبحان مبيد العباد ومفني البلاد، ووارث الأرض ومن عليها وباعث من خلق منها بعد رده إليه. ولبعضهم:

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبة حسرة وتشوّقا
كم قد وقفت بها أسائل أهلها ... عن حالها مترحماً أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقت من تهوى وعزّ الملتقى

ولبعضهم:

أيها الربع الذي قد دثرا ... كان عيناً ثم أضحى أثرا
أين سكانك ماذا فعلوا ... خبرن عنهم سقيت المطرا
فلقد نادى منادي دارهم ... رحلوا واستودعوني عبرا

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أوحى الله إلى الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه يا دنيا، مرى على أوليائي ولا تحلي لهم فتفتنيهم. وقال بعض الحكماء: الدنيا كالماء المالح، كلما ازداد صاحبها شرباً إزداد عطشاً، أو كالكأس من عسل وفي أسفله سم فللذائق منه حلاوة عاجلة، وفي أسفله الموت، أو كحلم النائم يفرح في منامه فإذا استيقظ زال فرحه، أو كالبرق يضيء قليلاً ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذي ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلاً يقول:

---

(١) الفلوات: مفردها فلاة: المفازة.
(٢) غاض: نشف.

أتبني بناء الخالدين وإنما ... بقاؤك فيها إن عقلت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية ... لمن كان يوم يقتضيه رحيل

قال: فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء خانته فروج الأصابع

ووجد مكتوب على قصر باد أهله:

هذي منازل أقوام عهدتم ... في خفض عيش نفيس ما له خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا ... إلى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفي نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدوّ في ثياب صديق

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً. فقال قبر من هذا؟ فقالوا قبر خباب بن الأرت فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه آخراً ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فإذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون. اللّهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى، ثم قال يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا فما عندكم، ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما أنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.